اسم الدرس : تفسير سورة يوسف (3) | الآيات (21 : 24)

تصنيف الدرس : مجلس القرآن

يوجد بالسورة كثيرٌ من الأشخاص، وتنتقل فيها بين المشاهد، فلا بد أن تُعَايش المشهد حتى تشعر بقيمة العبودية التي قام بها يعقوب -عليه السلام- أو يوسف -عليه السلام-، فلا بد أن تكون مُعايشًا للمشهد، تستحضره وتُحاول أن تضع نفسك في هذا المشهد، ثم ترى هل سَتُوفَّق لقول يعقوب -عليه السلام- ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾[يوسف ١٨] -نسأل الله السلامة والعافية وألا نُبتلى- لكن إذا ابتُلي الإنسان هل سيقول هذه الكلمة أم لا؟!

آخر مشهد توقفنا عنده المرة الماضية مشهد يوسف -عليه السلام- وهو يباع، فلتتخَيَّل المشهد، ولتتخيَّل مشاعر سيدنا يوسف بعد ما كان مع والده الذي يُحبَّه في البيت، ووسط إخوته، ثُمَّ رأى رؤية جميلة فزع منها أولًا، فطمأنه والده بأن فيها البشرى والخير، ثُمَّ فجأة ينتقل مشهد يوسف من البيت إلى الصحراء، ومن الصحراء إلى البئر، ومن البئر إلى السوق ليباع كعبد، أي أن حياته كلها تتغير فجأة في مشهدٍ واحدٍ! مثلًا كلحظة ظهور نتيجة الثانوية العامة، فتخيل من كان يأمل في الحصول على درجاتٍ عليا ثم يجد درجاته قليلة، فلن يستطيع اللحاق بأي كلية، فتشعر كأنه قد ضاع وأن الحياة انتهت واسودت في وجهه، فتخيل أن طفلاً في بيته قد ذهب إلى الصحراء ليلعب، ثم إلى البئر! يكاد أن يموت! ثم إلى السوق فأصبح عبدًا، تُرَى فيمَ كان يُفكر! لعله يقول ماذا سيحدث في مستقبلي؟! وماذا بعد هذا؟! هل سأظل عبدًا للأبد أم سأعود لوالدي؟! وهل سأراه مرةً أخرى؟! وماذا عن رؤياي؟! ماذا كان تأويلها، وكيف ستتحقق؟! تخيل أن كل هذه التساؤلات كانت تدور في عقل يوسف وفي خاطره -عليه السلام-.

❖ بداية التمكين:

آخر مشهد تحدثنا عنه وهو يُباع ويُؤخَذ ثمنه، وآخر كلمة سمعناها ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[يوسف ٢٠] يتخلصون منه وهم لا يعرفون قيمته، ولكنه عند الله غالٍ، ثُمَّ انتهى مشهد السوق والبيع، ثُمَّ فجأةً إذا فتحنا الصفحة التالية، نرى مشهدًا مختلفًا تمامًا، فلتتخيل هذا المشهد! داخل قصرٍ مهيبٍ، فجأةً نجد رجلاً يقول لامرأته: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ﴾[يوسف ٢١]، تدل كلمة ﴿ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ أن هذا الرجل اشترى يوسف كعبدٍ، وصار في بيته، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ إذًا فقد انتقل المشهد من الشام إلى مصر، خطوات كثيرة وأزمنة كثيرة قد مرَّت لانتقال يوسف -عليه السلام- من الشام إلى مصر. إذًا فقد جاءت كلمة ﴿مِن مِّصۡرَ﴾ لتعلم أنه انتقل إلى مكانٍ آخر تمامًا.

لكن هذه الآية لم توضح من الذي اشتراه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ فقط رجلٌ يُكَلِّم زوجته، نحن نعلم من يتكلم ومن يُخاطِب لأننا نعلم القصة، لكن أُريدك أن تتخيل أنك تقرأ الآية للمرة الأولى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ رجلٌ اشتراه من مصر، فمكانه مصر، ويتحدَّث إلى زوجته قائلاً ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، قلتُ أولًا أنه مشهد قصرٍ، أي أني أعرف ماذا حدثَ لأني أعلم أنه عزيز مصر، ولكن من المفترض أنك لا تعرف مشهد القصر، لكنك فجأة وجدتَ رجلاً يُخاطب زوجته، ويقول لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: يوسف -عليه السلام-.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ هنا أشار بعض العلماء إلى معنًى، أنه يقولُ لزوجته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فلم تقل له: (أكرمه أنت!) إذًا فمن الطبيعي أن الزوجة تُنَفِّذ الطاعة طالما في غير حرام، فلنتجاوز تلك النقطة ومن أراد أن يخوض في هذا الموضوع فليقرأ كلمات الشيخ الطريفي في تفسيره. فقد شرح معنًى جميلًا في قوله لزوجته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

يوجد معنى جميلٌ أيضًا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وليست (أكرميه)، فالمثوى هو المكان الذي يستقر فيه الإنسان، فإذا كانت ستُكرم المكان الذي سيستقر فيه، فكيف به هو؟ وأشار بعضُ المفسرين إلى معنى لطيف، قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ نسبةً إلى المثوى الذي كان فيه من قبل، أين كان من قبل؟ كان في البئر، في مكانٍ موحش، فانتقل من البئر إلى القصر، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: أكرمي المكان الذي سيستقر فيه، فما بالك بإكرامها له!

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لمَ؟ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، إذا انتظرت نفعًا من أحدٍ ما فمن المهم جدًّا أن تكرمه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن ٦٠]، وهذا ما حدث فعلًا، لذلك يوسف -عليه السلام- قال بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[يوسف ٢٣]، فلم ينسَ يوسف هذه الكلمة ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف ٢١] لما تعرَّضَ للفتنة من زوجة العزيز، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[يوسف ٢٣] هذا على القول الأشهر أنَّ ﴿رَبِّىٓ﴾ هنا بمعنى العزيز كما ستأتي معنا الآية. إذًا يوسف كان يحفظ الإحسان، وهذا الرجل كان يعامل هذا الغلام أنه سويٌّ صاحب فطرةٍ سَوِيَّة، إذا أكرمناه سيَرُدُّ لنا الإحسان ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[يوسف ٢١] أيًّا كان النفع أو يصبح ولدًا لنا.

كلمة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ كل كلمة في السياق القرآني لها دلالة؛ لأنها قصة بها كثيرٌ من الأحداث، إذا شاهدتَ فيلمًا فإنه يرسم لك المكان فيغنيك عن كثيرٍ من الكلام، فإذا حوَّلْتَ فيلمًا تُشاهده لكلامٍ فإنك

تحتاج أن تضبط كل كلامك لتنقل المشهد تمامًا، وهذا من إعجاز القرآن، فكلامٌ قليلٌ غير مُوَسَّع ينقل إليك الأحداث الكثيرة، الكلام مبنيٌّ على الإيجاز وهذا الأصل في القرآن، الإيجاز لا الإطناب إلا لغرضٍ بلاغي محدد، ويحمل فيه كل هذه الأحداث والعِبَر والمعاني، وهو كلامٌ واقعي ليس خيالًا، كما ذكرنا وكما سنذكر اليوم –إن شاء الله– الفارق بين الرواية والقصة القرآنية.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال بعض المفسرين أن كلمة ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيها إشارة إلى أنه كان لا ينجب، فكان يحبُّ أيَّ ولدٍ، فمن كان له ثلاث أو أربع أولاد إذا قلتَ له: خذ هذا معك ليكونَ ابنًا لك سيقول لك: (يكفيني من عندي، أنفِق عليهم بصعوبة)، فالشاهد: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيها إشارة أنه كان يَنْقصه الولد.

ثُمَّ فجأة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قلنا لو أنت تقرأ هذه الآية للمرة الأولى، تخيل لو هذه أول مرة تسمع الآية، من الذي اشتراه من مصر؟ لا تدري،إذا قلتَ (عزيز مصر) تكون قد غششت، مِنَ الآية هنا من الذي اشتراه؟ لا ندري، رجلٌ يقول لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، لكن توجد إشارة واضحة أن الذي اشتراه رجلٌ له منصب، فَمِن أين أتينا بهذه الإشارة؟ أي كلمة؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾، طالما توجد كلمة (تمكين) فمِنَ الواضح أن الذي اشتراه مُمَكَّن طالما قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه له منصب ما، لم ندري ماهيته بعد، لكن مِنَ الواضح أنه طالما قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ فهذه بداية تمكين، وأنه قد ذهب إلى مكانٍ غير عادي، ليس مجرد بيتٍ عادي في أطراف مصر، أو رجلًا عاديًّا في مصر اشتراه بثمن زهيد، لا من الواضح من هذه الكلمة –عِشْ المشاهد كأنك تسمعها للمرة الأولى– ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ رجلٌ يتحدَّثُ إلى زوجته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فتسأل لِمَ أراد ولدًا؟ إذًا توجد دلالة هنا.

* ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ ماذا تعني ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؟

- قال بعض أهل العلم: "وكما أنجيناه هذا الإنجاء العجيب من البئر، أيضًا نُمَكِّن له هذا التمكين العجيب، فسُنَّة الله –سبحانه وتعالى– مع يوسف لا تتخلف"، إذًا فكما نَجَّاه الله –سبحانه وتعالى– من البئر بصورة عجيبة، وجعل السيارة تمر في توقيتٍ مناسب قبل أن يهلك، وأنزلوا الدلو بصورة مناسبة قبل أن يهلك، وكانت هذه السيارة متجهة في اتجاه معين لتذهب إلى مصر، كل هذه الترتيبات العجيبة حدثت، كذلك سيحدث التمكين ليوسف بصورة عجيبة.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وقيل: ﴿مَكَّنَّا﴾ هنا بمعنى (المكانة) أي: جعلنا له مكانة في قلوب الخلق، فألقى الله محبته في قلب هذا الرجل -الذي لم نعرف من هو بعد- من سيكون هذه الرجل؟ عزيز مصر، كان من الممكن أن يلقاه عزيز مصر في السوق، فلا ينظر له ولا يأبه له، وكان يشتري عبدًا من سوق العبيد، كان من الممكن أن يقول: (لا يُعجبني هذا الغلام)، لكنَّ الله ألقى محبة يوسف في قلب العزيز كما فعل الله -سبحانه وتعالى- مع من؟ مع موسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه ٣٩]، فنظرت إليه امرأة فرعون فأحبته وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾[القصص ٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[يوسف ٢١] إما أن هذا بداية التمكين، أو جعلنا له مكانة في قلوب الخلق ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إذًا هذا التمكين به قوة وتعليم، هكذا قمة التفوق وقمة التمكين يكونا بالقوة وبالعلم، فمن أراد أن يُمَكَّن له في الأرض فإنه يحتاج إلى شيئين: العلم والقوة. أيهما أفضل، العلم أم القوة؟ العلم، ما الدليل؟ أريد دليلًا على هذا، أي سورة؟ سورة النمل ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾[النمل ٤٠] قال الأول: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[النمل ٣٩] القوي قال لسُليمان: سأُحضِر لك عرش بلقيس قبل أن تقوم من مقامك، تجلس فترة. والثاني -الذي عنده علمٌ- قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل ٤٠]، لذلك أشار ابن عاشور هنا إلى معنى أن العلم هو الأقوى والأفضل من القوة، لكنَّ الأفضل الجمع بينهما، العلم يجعلك تبذل مجهودًا أقل وتحصل على أعلى مما تريد. إذًا فأي دولة تريد أن تكون لها سيادة تهتم بشيئين: العلم والقوة.

* الشاهد هنا: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف ٢١] هذه لام التعليل، فماذا تعني ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾؟

- قال بعض أهل العلم: مَكَّنَّاه لِنُعَلِّمَه ونُتِم نعمتنا عليه، ونُحقق له الرؤية التي رآها ووعده يعقوب أنها سوف تحقق. أي: مَكَّنَّاه لِنُعَلِّمَه لتتم الرؤية، لأن سيدنا يعقوب لما سمع الرؤية قال له: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف ٦] سيأتي وقتٌ وتتعلَّم تأويلَ الأحاديث، فجاء هذا التوقيت.
- وقيل: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف ٢١] أي: نُعَلِّمَه الوحي، مَكَّنَّاه وأنزلنا عليه الوحي ليُعَلِّم الناس.

❖ شعارك من السورة:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لو لم تخرج من السورة كلها إلا بهذا الشعار فأنت الفائز، وتكون قد خرجت بغنيمة عظيمة، حتى لو لم تخرج من السورة كلها إلا بهذا الشعار القرآني، ماذا تعني خرجت به؟ أي: استقر في قلبك، هذه هي أعظم حقيقة في الكون ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

* أولًا ماذا تعني ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾؟ علام تعود هاء الضمير؟ لتفهموا التفسير، فُكُّوا الضمير أولًا، استبدله باسم ظاهر لتعرف تفسيره، فعلى من تعود هاء الضمير في "أمره"؟

- يوجد قولٌ أنه يعود على الله -سبحانه وتعالى- أي: (والله غالب على أمر الله) سنشرح ماذا تعني.
- وهناك قولٌ آخر (والله غالبٌ على أمر يوسف).

(الله غالبٌ على أمر الله) أي: إذا نازع اللهَ أحدٌ في أمره؛ فإن الله يُتِم أمرَه، لا يستطيع أحدٌ أن ينازع الله في أوامره. إذًا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: يفعل ما يشاء من أوامره. وكلمة ﴿عَلَىٰٓ﴾ توحي بالتنازع وكأن هناك من يعتقد أو يظن واهمًا أنه سَيُنَفِّذ إرادته، فتأتي إرادةُ الله وتسحقُه، وتتم إرادة الله ولا تتم إرادة ذلك الشخص الذي أراد أن ينازع الله، هذا هو المعنى الأول، وسأذكر لكم معنًى ثاني.

لكن في المعنى الثاني (أمره) بمعنى: أمر يوسف، فماذا تعني (والله غالبٌ على أمر يوسف)؟ أي: كلما أراد الناس بيوسف شيئًا وأراد الله شيئًا آخر، فإن إرادة الله هي التامة.

إذًا فتنازع الإرادات يحدث في السورة كلها، أراد إخوة يوسف أمرًا وأراد الله أمرًا، فكان أمرُ الله، أراد العزيز أمرًا وأراد الله أمرًا، فكانت إرادة الله، أرادت امرأة العزيز أمرًا وأراد الله أمرًا، فكانت إرادة الله، أراد أصحاب السجن أمرًا وأراد الملك أمرًا. وكل هذه الإرادات كانت في السورة لكن إرادة الله كانت غالبة، لو تخلفت إرادة واحدة على مدار السورة لما تمت القصة.

كما أخبرتك أن من أهم الطرق للتعامل مع سورة يوسف أن تتخيل سلسلة الأحداث مترابطة، وتتخيل أنه لو أن حدثًا واحدًا لم يحدث، فلن تكتمل السورة، لو أن هناك حدثًا واحدًا لم يتم لما اكتملت السورة، بل من اللحظة الأولى لما قال قائل منهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾[يوسف ١٠]، فلو قتلوه لانتهت القصة، أو لو باعوه في مكانٍ آخر، أو كانت البئر مهلكة، أو لو مرَّ عليه سبعٌ من السباع وافترسه -أيًّا كانت أحداث القصة فإنها لن تكتمل- لو ذهب إلى مكانٍ آخر غير قصر العزيز، ولو لم تكن امرأة العزيز راودته، ولو لم يدخل السجن، أو كان السجن انفراديًّا، فلم يكن معه اثنان، أو لم يرَ الرجلان اللذان كانا معه في السجن

الرؤية، أو رأوا رؤية ولم تتحقق، أو رأوا رؤية ولم يستطع سيدنا يوسف تأويلها، أو أوَّلها، لكن نسي من نجا أن يخبر الملك عن يوسف، أو لم يرَ الملك رؤياه، أو رأى الملك رؤية خاطئة، أو لم يسأل عن تأويل رؤياه.. أحداث متتالية عجيبة تصل بيوسف -عليه السلام- إلى هذا المكان الذي اختاره الله له.

وكذلك أحداث حياتك وأنت لا تشعر، فإنها تُرَتَّبُ بصورة عجيبة وأنت لا تدري، فقط لأنك لا تتأمل، فأنت لا تدري كيف جاء بك رَبُّك إلى المسجد هنا، ولا تدري ما حدث من أحداثٍ، فكان من الممكن أن تغرق، وكان من الممكن أن تموت، وكان من الممكن أن تقع لك حادثة... أحداثٌ عظيمةٌ وكثيرة، حتى إن بعض الصحابة كانوا يقسمون بها، فيقول إذا أقسم: "لا والذي نجاني يوم بدر"، وآخر يُقسم ويقول: "لا والذي رد القطيف"، هذه قصة طويلة، لكن ماذا تعني الأولى "والذي نجاني يوم بدر"؟ كان يُقاتل في بدر في صفوف المشركين ضد المسلمين، ولم يقتل، وكان من الممكن أن يموتَ ويُخَلَّد في جهنم -والعياذ بالله- فأنجاه الله، ولم يُقتل في بدر، وأسلم وحَسُنَ إسلامه، كذلك أنت مرَّت أحداثٌ كثيرةٌ بحياتك لا بد أن تستشعر فيها هذا المعنى.

إذًا كلمة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[يوسف 21] أي: أنَّ الله يفعل ما يشاء في كونِه، الخلقُ خلقُه والملكُ ملكُه. رؤية هذا الحدث ورؤية هذه الجملة، بل رؤية هذه العقيدة بهذه الصورة صعبٌ جدًّا، فكثرة الأحداث والأسباب والانشغالات والأشخاص والمناصب والأموال تجعلك مُشَوَّش الفكر، مَشغولًا بذلك الحدث، وبتلك القصة، وبذلك السبب، وذلك المنصب، وذلك الشخص، فيصير من الصعب أن تستحضر دائمًا أن الأمر أمره، تنسى! فتقول لو أن فلان فعل كذا سأضيع، لا، فالله قادرٌ على أن يُنقِذك، فلا بد أن تستثني دائمًا وتقول: "إلا أن يشاء الله شيئًا".

فرؤية هذا الحدث مهمة جدًّا، ورؤية هذه الجملة مهمة جدًّا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾، لذلك من الأذكار التي تقولها بعد الرفع من الركوع: (أهلَ الثناء والمجد)[1]، يقول البعضُ: "أنت أهلُ الثناء"، لكنَّها (أهلَ) -إن شاء الله- لأنها منادى، تنادي على الله (يا أهلَ الثناءِ والمجد) ثم تقف وتقول: (أحقُّ ما قال العبد) أكثر كلمة حقيقية تكلم بها عبدٌ في الأرض، ما هي هذه الكلمة؟ (أحقُّ ما قال العبد)،ثُمَّ جملة اعتراضية (وكلُّنا لك عبد)، (اللهم لا مانعَ لما أعطيت، ولا معطي لما منعت) هذا توحيد المنع والعطاء، وأنَّ

[1] [عن أبي سعيد الخدري]: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قالَ: رَبَّنا لكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَواتِ والأرْضِ، ومِلْءُ ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعْدُ، أهْلَ الثَّناءِ والْمَجْدِ، أحَقُّ ما قالَ العَبْدُ، وكُلُّنا لكَ عَبْدٌ: اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِما أعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ. مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٤٧٧ • [صحيح]

الله يفعلُ ما يشاء في ملكه –سبحانه وتعالى– هذه أحقُّ كلمة موجودة. لذلك كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول في دعاء الاستفتاح في قيام الليل: (أنا بك وإليك)[2]، (أنا بك) باء الافتقار والاستعانة، أي: الافتقار والاستعانة بك ووجهتي إليك.

إذاً كما أنطق الله –سبحانه وتعالى– ذلك القائل: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾[يوسف ١٠]، أنطق هذا الرجل وقال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾[يوسف ٢١].

كنا ذكرنا في المرة السابقة أثرًا أخطأتُ فيه: (أفرس الناس ثلاثة) ثلاثة هم من عندهم نوعٌ من الفراسة، منهم هذا الرجل عزيز مصر حينما قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، ومنهم امرأة فرعون، من الثالث؟ الثالث هو من أخطأنا فيه، الثالث هو أبو بكر الصديق حينما تَفَرَّس في عمر بن الخطاب أن يحمل هو الخلافة من بعده، فهذا تصحيح الأثر الذي ذكرناه المرة السابقة مرويٌّ عن ابن مسعود بسند حَسَّنَه بعض أهل العلم.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لكن أين المشكلة؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف ٢١] هذه هي المشكلة، كثيرٌ من الناس لا يعلم هذه الحقيقة، كثيرٌ من الناس مشغولٌ بالأسباب والأحداث وبالأشخاص والمناصب، فلا يعلم هذه الحقيقة، لذا حاول أن تجاهد نفسك، ومما يُعينك على ذلك أذكار الصباح والمساء ففيها: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير)[3]، كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (هزم الأحزاب **وحده**)[4] كيف وقد جاهدنا، وجَمَّعنا الأموال، ومعنا

---

[2] [عن علي بن أبي طالب]: كان إذا ابتدَأَ الصَّلاةَ المكتوبةَ قال: (وجَّهْتُ وجهيَ للَّذي فطَر السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا مِن المُشرِكينَ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالَمينَ لا شريكَ له وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسلِمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِكُ لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَكَ وبحمدِكَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ ظلَمْتُ نفسي واعترَفْتُ بذَنْبي فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ واهدِني لِأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لِأحسَنِها إلَّا أنتَ واصرِفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرِفُ عنِّي سيِّئَها إلَّا أنتَ لبَّيْكَ وسعدَيْكَ والخيرُ بيدَيْكَ والمَهديُّ مَن هدَيْتَ أنا بكَ وإليكَ تبارَكْتَ وتعالَيْتَ أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ)

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ١٧٧٢ • أخرجه في صحيحه

[3] [عن أبي هريرة]: مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كانَتْ له عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَ له مِئَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنْه مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ له حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ، يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِيَ، ولَمْ يَأْتِ أحَدٌ بأَفْضَلَ ممَّا جاءَ إلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أكْثَرَ منه.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٠٣ • [صحيح]

[4] [عن عبدالله بن عمر]: أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا قَفَلَ مِنَ الغَزْوِ أوِ الحَجِّ أوِ العُمْرَةِ يَبْدَأُ فيُكَبِّرُ ثَلاثَ مِرارٍ، ثُمَّ يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ، وله الحَمْدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. آيِبُونَ تائِبُونَ، عابِدُونَ ساجِدُونَ، لِرَبِّنا حامِدُونَ صَدَقَ اللَّهُ وعْدَهُ، ونَصَرَ عَبْدَهُ، وهَزَمَ الأحْزابَ وحْدَهُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤١١٦ • [صحيح]

السيوف، وأخدنا بالأسباب؟! (هزم الأحزاب وحده)، ينبغي ألا ترى قوتك وألا ترى الأسباب، بالرغم أنك ستأخذ بالأسباب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

❖ الاستواء والنضج أولاً:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف ٢٢] تقول لك الآية بعدما تعايش مشهد استقراره في هذا المكان –الذي لم نعرف بعد أنه قصر– مشهد الرجل الذي قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾[يوسف ٢١] بدا لنا أن هذا الرجل مُمَكَّن؛ لأن الله قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف ٢١]، يقول الله بأن يوسف استقر فترة من الزمن حتى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾[يوسف ٢٢] هذه الآية لها متشابهة، في أي سورة؟ في سورة القصص، عمَّن؟ سيدنا موسى، لكن ما الفارق بينهما؟ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾[القصص ١٤] هنا ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ –فقط– ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾[يوسف 22].

تكلم بعض العلماء في فن الفروق بين المتشابهات القرآنية، وهذا فنٌّ من علوم القرآن أبدع فيه بعض الناس كالإمام ابن الزبير الغناطي أو الخطيب الإسكافي وغيرهم، حاولوا دراسة كل الآيات المتشابهة ودراسة الفروقات بينها ومناسبتها للموضع الذي جاءت فيه، أي: لمَ جاءت هكذا في هذا الموضع.

فقالوا: كلمة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾[القصص ١٤] جاءت مع سيدنا موسى، والاستواء مرحلة أعلى من بلوغ الأشد، فقالوا إنَّ بلوغ الأشد يكون عند عشرين أو خمسة وثلاثين أو أربعين سنة على خلاف بين المفسرين، أو حتى من الثمانية عشر حتى الأربعين، هذا هو ما يُسمى (بلوغ الأشد) ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾[الأحقاف ١٥]، وقال بعضهم عند ثلاثة وثلاثين سنة.

من الواضح من كلمة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾[القصص ١٤] أن سيدنا موسى كان بلغ سِنًّا أعلى من سنِّ يوسف –عليهما السلام–، وخبرات وتجارب أعلى من خبرات وتجارب سيدنا يوسف، ومر بإشكاليات أعظم من التي مَرَّ بيها سيدنا يوسف، ومِن ثَمَّ قال معه الله كلمة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ وهي مرحلة أعلى من بلوغ الأشد، وهذه نقطة مهمة **ألا تَتَعَجَّل التصدر قبل الاستواء**، فمن الإشكاليات أن يتعجل الإنسان التصدر قبل الاستواء، والمرور بتجارب ثُمَّ النضج. دائمًا ما تكون مراحل البداية غنية بالحماسة، لكن هذه الحماسة قد تؤدي إلى عدم ضبط الحكمة، لذلك قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾[يوسف ٢٢] قالوا من الحكمة، والحكمة أصلاً من معانيها الضبط، والمعنى المشهور: وضع الشيء في موضعه، لكن من معانيها أن

الحَكَمة هي التي تضبط الشيء ففيها ضبط، لذلك قال بعضهم هنا: إن حُكْمًا فيها إشارة أنه سيستطيع أن يضبط نفسه أمام الشهوة.

﴿وَعِلْمًا﴾ قيل: إنها النبوة، وقيل: العلم بالوحي (العلم بالله)

الشاهد: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. إذًا يا ربي ألا يمكنني أن أنالَ قسطًا من هذه الحكمة وقسطًا من هذا العلم؟ طبعًا لن تنال النبوة، لكن ألا يمكنك أن تنال نصيبًا منه؟ بلى، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أن تكونَ محسنًا في علاقتك بالله؛ فحينئذٍ ستنال حُكْمًا وعِلْمًا.

الآن مشهد آخر مختلف تمامًا، انتهى المشهد الأول وهو يقول لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[يوسف ٢١]، تخيل مشهد ساعة أو تقويم يُنْزع منها الأوراق. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾[يوسف ٢٢] مرت الأوقات وهو لا يزال في هذا المكان يخدم فيه ويطيع سيده وينفذ ما يؤمر به وهو طائع، ولا يرتكب يوسف -عليه السلام- أي معصية، وفجأة يأتي المشهد التالي في هذا المكان..

❖ بداية مفاجئة:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾! فالبداية تنقلك إلى حدثٍ عجيب ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ * وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾[يوسف 23-٢٥].

المشهد الذي كان فيه استعار شهوة المرأة ومحاولة مراودة يوسف عن نفسه كان في آيتين، وبصورة عامة مجملة بدون سرد تفاصيل، وهذا يُعَرِّفُك الفارق بين الرواية وخصوصًا الروايات المعاصرة التي تستفيض في المشاهد التي بها إثارة جنسية، ثُمَّ تقول إن الحبكة الدرامية تحتاج هذا! فلستُ أفهم ماذا تعني الحبكة الدرامية التي تحتاج هذا؟! لعلَّ هذا سيبيع أكثر مثلًا، أو سيستثير غرائزَ أكثر؟! فتحرص الناس عليها أكثر! أو لعلَّ هذا أقرب لنفوس الشباب، فيحرصون عليه أكثر، لكن تأمل، كلَّما كان الغرض الأساسي هو الحكمة والعبرة فإنك لا تهتم بهذه التفاصيل.

قيل المجمل في آيتين في قمة النقاء، وهذا الفارق بين القرآن وبين التوراة والإنجيل، عندما تقرأ تلك القصة في الإنجيل أو في التوراة أو قصصًا أخرى مثلها، فتجد أحداثًا عجيبة يستحي المرء أن يقرأها ويتعجب من

قولهم أن هذا كلام الله! ويستحي المرء من قراءة بعض الفصول الموجودة في التوراة والإنجيل باستفاضة وبتفاصيل فيها نوعٌ من الإثارة لا تجدها أبدًا في القرآن مثل هذا، بل تجد إشارات لتفهم مُجْمَل ما حدث وتخرج بالعبرة.

ولِمَ جاءت تلك الإشارات؟ لأننا بشر من الممكن أن نمر بذلك، فقد يقول أحدهم: ولِمَ يقصُّ الله لنا هذه القصة؟ ليس من الضروري أن نتعلم تلك القصة، كيف ليس ضروريًّا؟! أنت بشرٌ، وقد تمر بهذا المشهد، وقد تُرَاوَد عن نفسك، أو تُرَاوِد أنت فتاةً، فتحتاج إلى زادٍ قرآني يخبرك ماذا تفعل في هذه الأحداث حينما تستعر شهوتك، ماذا تفعل؟ (فقمت عنها -كما قال الرجل الذي حرك الله له الصخرة- وهي أحبُّ الناس إلي)[5]، إذًا فالشهوة مغروسة فينا، لا فرار منها، القضية أنك تتعلم ضبط الشهوة وأن تسعى إلى الصيام أو إلى الزواج، طبعًا الآن لا نستطيع إلا الصيام، اللهم زَوِّج شباب وفتيات المسلمين، قولوا آمين، لا تيأسوا أو تحبطوا فالله قادر ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف ٢١].

إذًا ما الفارق بين القرآن وبين أي كلامٍ آخر؟ تأمل كيفية إجمال المشهد بصورة عجيبة مع ذكر الحكمة والعبرة، ذَكَر ذلك الإمام الطبري، سنؤجلها إلى قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾[يوسف ٢٤] واختيار الإمام الطبري وسبب اختياره هذا الاختيار.

لنقف أولًا مع الألفاظ لنفهم، فكل لفظٍ في القرآن له دلالة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾[يوسف ٢٣] آخر مشهد كان يوسف -عليه السلام- يُؤتى الحِكمة والعلم، والحُكم والعلم، وهو في بيتٍ معين، واتضح أن الذي اشتراه صاحب هذا البيت، وقال لامرأته ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾[يوسف ٢١] وصاحب هذا البيت قد اهتم به.

---

[5] [عن عبدالله بن عمر]: بَيْنَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فأَوَوْا إلى غارٍ في جَبَلٍ، فانْحَطَّتْ على فَمِ غارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فانْطَبَقَتْ عليهم، فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أعْمالًا عَمِلْتُمُوها صالِحَةً لِلَّهِ، فادْعُوا اللَّهَ بها لَعَلَّهُ يُفَرِّجُها عَنْكُمْ، قالَ أحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إنَّه كانَ لي والِدانِ شيخانِ كَبِيرانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغارٌ، كُنْتُ أرْعى عليهم، فَإذا رُحْتُ عليهم حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بوالِدَيَّ أسْقِيهِما قَبْلَ بَنِيَّ، وإنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذاتَ يَومٍ، فَلَمْ آتِ حتَّى أمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُما ناما، فَحَلَبْتُ كما كُنْتُ أحْلُبُ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِما أكْرَهُ أنْ أُوقِظَهُما، وَأكْرَهُ أنْ أسْقِيَ الصِّبْيَةَ، والصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ، فافْرُجْ لَنا فُرْجَةً نَرى منها السَّماءَ، ففَرَجَ اللَّهُ، فَرَأَوُا السَّماءَ، وقالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إنَّها كانَتْ لي بِنْتُ عَمٍّ أحْبَبْتُها كَأشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجالُ النِّساءَ، فَطَلَبْتُ منها، فأبَتْ عَلَيَّ حتَّى أتَيْتُها بمِئَةِ دِينارٍ، فَبَغَيْتُ حتَّى جَمَعْتُها، فَلَمّا وَقَعْتُ بيْنَ رِجْلَيْها، قالَتْ: يا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلا تَفْتَحِ الخاتَمَ إلّا بحَقِّهِ، فَقُمْتُ، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ، فافْرُجْ عَنّا فُرْجَةً، ففَرَجَ، وقالَ الثّالِثُ: اللَّهُمَّ إنِّي اسْتَأْجَرْتُ أجِيرًا بفَرَقِ أرُزٍّ، فَلَمّا قَضى عَمَلَهُ، قالَ: أعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عليه، فَرَغِبَ عنْه، فَلَمْ أزَلْ أزْرَعُهُ حتَّى جَمَعْتُ منه بَقَرًا وَراعِيَها، فَجاءَنِي فَقالَ: اتَّقِ اللَّهَ، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إلى ذلكَ البَقَرِ وَرُعاتِها، فَخُذْ، فَقالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلْتُ: إنِّي لا أسْتَهْزِئُ بكَ، فَخُذْ، فأخَذَهُ، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ ما بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ. وقال إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن نافع (فسعيت)
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٣٣٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣).

فجأةً ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾[يوسف ٢٣] الفاعل أنثى، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ من التي راودته؟ نحن لا نعلم من التي راودته، ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، لِمَ لَمْ يُقال (وراودته امرأة العزيز)؟ -انتبهوا هنا وافتحوا المصاحف- من هذه المرأة؟ متى سنعلم من هي تلك المرأة؟ ما زلنا لا ندري من هي؟ متى سنعلم إذًا؟ في آية ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾[يوسف ٣٠] إذًا فقد فضحها النسوة اللاتي في المدينة، قال كثيرٌ من أهل العلم إنَّ الله هنا قد أراد لها الستر فلم يقل (وراودته امرأة العزيز).

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾[يوسف 23] وسنقول الحِكمة الثانية التي استنبطها المفسرون، لِمَ لَمْ يُقال (وراودته امرأة العزيز عَن نَّفۡسِهِۦ)؟ فأنت عندما تقرأ الحدث للمرة الأولى تريد أن نعرف من هي؟ لكن جاءت مُبْهَمة باسم موصول، وبحدث معين هو الظاهر.

فلنقل أولًا ماذا يعني قول ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾، قبل أن نقولَ لِمَ قيل ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، (راود) -حاولت أن أجمع لكم أقوال بعض العلماء-، يقول ابن عطية: إن المراودة هي الملاطفة في السَّوْقِ إلى الغرض، أي: لك غرضٌ معين تَصِل له بنوعٍ من الملاطفة، ليس من الضروري أن يكون هذا الغرض (الشهوة) لأن فعل المراودة جاء ثمانِ مراتٍ في القرآن، سبعةٌ منها في سورة يوسف، الفعل (راود) أو الجذر اللغوي (رود) علمًا بأن هذا الجذر له معنى لغويٌّ أيضًا منه: (الإرادة) و(أراد)، وقد تكرر (أراد) و(إرادة) و(يريد) كثيرًا في القرآن، لكن (راود - ﴿رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾[يوسف ٢٦]- ﴿رَٰوَدُوهُ﴾[القمر ٣٧]- ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[يوسف ٦١]) جاءت ثمانِ مرات في القرآن، سبعة منها في سورة يوسف، واحدة في سورة القمر مع قوم لوط ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾[القمر ٣٧].

هذا الفعل متكرر هنا لماذا؟ قلنا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[يوسف ٢١] تنازع إرادات، راود في معنى الإرادة وكأن أحدهم يتلطف ليحصل على شيء وربنا يمنع هذه الإرادة، أو يحصلوا على مراودتهم.. راودوا يوسف عن أبيه وأخذوه منه وبالرغم من ذلك ربنا أنقذه، وأخذوا أخاه الثاني ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[يوسف ٦١] فأنقذه الله أيضًا.

إذًا ما المراودة؟ قال ابن عطية: الملاطفة في السوق إلى غرضه، وبعض من حاولوا إيجاد الجذر اللغوي (رود): قال الشيخ جابر -من المعاصرين-: حركة انتقال أو تردد بخفة وعدم ثبات واستقرار. قالوا الجمل عندما يتحرك ويذهب ويأتي ولم يستقر بعد في مكان أو مرعى معين يقولون: راود الإبل. والمرأة كثيرة الحركة التي لا تستقر يقولون: راود المرأة، ما معناها هنا؟ مراودة أي: تتحرك كثيرًا. والأصفهاني قال: التردد في طلب شيء

برفق. فقالوا الكلمة فيها الذهاب والمجيء؛ لذلك الرائد عند العرب عندما يبحثون عن مكان لرعي الغنم فيسبقهم شخص هو الرائد، فيظل يذهب ويجيء إلى أن يصل لمكان مناسب فيأتي ويخبرهم بالاستقرار فيه.

من هذه المعاني يتضح أن راودته: ظلت تروح وتجيء أمامه كثيرًا فترة طويلة بكامل زينتها تريد غرضًا معينًا، تريد أن تصل إليه بصورة غير مباشرة، مع نوع من الرفق والملاطفة والذهاب والمجيء -هذا مجموع أهل اللغة في كلمة راودته-، كلمة واحدة أغنت عن كثير من الأحداث، هذا من إعجاز القرآن وهذا أيضًا من إعجاز اللغة العربية.

لما فشلت المحاولة الأولى قالت: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾[يوسف ٢٣]! ألم تفهم؟! نقلت للكلام الصريح، فهي قبله حاولت فعل نوع من التعريض للوصول إلى هذا المشهد -لا تعش مع هذا المشهد كثيرًا- أريدك أن تعرف كيف أن كلمة واحدة تظهر عفة القرآن، وقارن هذا -طبعًا لا يوجد وجه للمقارنة- لكن أتعجب من بعض الروايات التي لا هدف لها أو فيلم لا فائدة منه فعند عرض مشهد مثل هذا لم يستفيضون فيه؟! لاستثارة الغرائز، وهذا من الشيطان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾[النور ١٩]، هناك بعض الناس يحبون إشاعة هذه الأمور حتى أمام الأطفال! وكسر الحياء مصيبة كبيرة سواء عند المرأة أو الرجل أو الطفل، هذه مصيبة من تغيير الفطرة وانتكاسها -والعياذ بالله-.

قالوا: راود صيغة (فَاعَلَ)، وتلك الصيغة تأتي لاشتراك اثنين في الفعل غالبًا، فمثلًا: قاتل أو جاهد، صيغة الفعل أن أمامه شخص آخر، قالوا: هل راود معناها أن يوسف بادلها ذلك؟ قالوا: لا.

* إذًا لمَ جاءت الصيغة على صيغة فَاعَلَ؟ قالوا معنيين:

- الأول: أن هذه الصيغة من الممكن أن تستعمل عندما يبذل الإنسان فعلاً فيه مشقة وبذل فيخطط ويدبر كما في: (سافر)، هو لا أحد يسافر معه، إنما هو يسافر بمفرده، لكن جاءت صيغة فاعل لأنه يتكلف ويبذل مشقة. فكلمة (راود) من الواضح أنها ظلت تخطط وتفكر كيف تصل لغرضها هذا، حتى إن بعض المفسرين أشار إلى معنى لطيف جدًا، قال: إنها ظلت تخطط، حتى خططت ماذا ستفعل إن كُشف أمرها، ماذا قالت؟ ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ....﴾[يوسف ٢٥]، هي لم تتلعثم حتى لأن جوابها كان جاهزًا، وكانت مخططة للأمر بكل تفاصيله وأحداثه واحتمالاته.
- المعنى الثاني: قالوا: وكأن جمال يوسف وحسنه وأدبه وعفته كان يزيدها تمسكًا به واستمرارًا لمراودتها له بدلًا من أن تصرفها عنه، عفّته وتمنُّعه كان يزيدها إقبالًا عليه!

انتهينا من ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾[يوسف 23] أو هذا على قدر ما رأيت لأن الكلمة فيها مباحث كثيرة.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي﴾[يوسف 23] اسم موصول، قلنا المعنى الأول فيه إرادة الستر، والمعنى الثاني فيه إشارة مهمة جدًا، وهو أنه مستقرٌ في بيتها فحصل بينهما كثرة خلطة، وهنا مبحث الاختلاط وفيه تفاصيل كثيرة، وكثرة الخلطة ترفع الكلفة وتزيد الألفة. وهذا إشكال يحدث في الاختلاط بين الرجل والمرأة حتى في الأماكن العامة؛ لذلك تحدث الشرع عن الاختلاط العابر أنه مما يحتاجه الناس، فلن يعيش الرجال في قرية ولن تعيش النساء في قرية لكنهم يعيشون في مكان واحد وكانوا هكذا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- فكانوا يصلون في نفس المسجد، لكنه كان يسمى اختلاطًا عابرًا، في مسجد أو في سوق، لكن الاستقرار الدائم بين الرجل والمرأة يرفع الكلفة؛ كيف حالكِ؟ كيف حالكَ يا أستاذ فلان؟ ثم بعد ذلك لا يقول حضرتك ولا أستاذ، وتُكسر الكلفة بينهم وتصل إلى حالة من الألفة لا تجوز إلا بين الرجل وامرأته، لماذا؟ لأن كثرة الخلطة تفعل ذلك.

فكأن كلمة ﴿هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ دلت على أن استمرار هذا الوضع خاطئ، لكن يوسف -عليه السلام- لم يكن بيده شيء لأنه كان عبدًا، فالاستمرار وكثرة الخلطة أدت إلى الوقوع في ذلك، إذًا قضية الاختلاط ليس لها علاقة بأنه رجل محترم أو هي محترمة؛ لأن هذا من الفطرة ومن مكونات الإنسان. النبي -صلى الله عليه وسلم- في أعظم المواطن وأشرفها، في الصلاة قال: (شر صفوف الرجال آخرها، وشر صفوف النساء أولها)[6]، لِمَ؟ لأنهم يكونون قريبين من بعضهم فتكون هناك فتنة، وكان بعض الناس يتسلل ويصلي آخر الصف ليرى النساء اللواتي في أوائل الصف! لذلك قال بعض أهل العلم إن أحد أسباب نزول آية ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾[الحجر ٢٤] في سورة الحجر أن الله -عز وجل- عالم بالإنسان العفيف الذي يريد الصلاة دون أن يرى النساء والذي يصلي متأخرًا لكي يرى النساء، فأحيانًا يتظاهر بأنه متأخر أو يفعل أي شيء ليرى المرأة أو ينظر لها بشهوة، وهذه النظرة يعلمها الله ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا﴾ فالله مطلع على قلبك. تظل أنت تجادل وتقول: إنه ليس بحرام. لكن الله مطلع على قلبك فاحذر ﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾[البقرة ٢٣٥].

[6] [عن أبي هريرة]: خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجالِ أوَّلُها، وشَرُّها آخِرُها، وخَيْرُ صُفُوفِ النِّساءِ آخِرُها، وشَرُّها أوَّلُها. مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٤٤٠ • [صحيح]

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾[يوسف 23] المعنى الثالث قالوا: قد تكون أدخلته في الأماكن الخاصة بها، فكانت تدعي أنها تريد أن يخدمها في هذا المكان أو ينظفه، وكلها محاولات استدراج من المرأة وفشلت لأن يوسف كان عفيفًا.

لما وصلت لمرحلة أن كل هذه المحاولات قد فشلت انتقلت من التعريض بذلك إلى التصريح! وقامت الأول بالتهيئة قبل التصريح ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[يوسف ٢٣]، قالوا: ما الفارق بين أغلقت الأبواب وغلَّقت الأبواب؟

(غلَّق) هذه صيغة تفعيل تفيد واحد من شيئين؛ إما: تكلف أو بذل مشقة في الشيء، أو تفيد الكثرة، كَسَرَ الشيء غير كَسَّر الشيء، كسَرَه أي: ضربه مرة واحدة فانكسر، أمّا كسَّره أي: فتته إلى قطع صغيرة كثيرة، فبذل هنا المشقّة. فجاءت هنا غلَّقت الأبواب إما لكثرة الأبواب التي أحكمت إغلاقها، أو حتى كانت أبوابًا بسيطة لكنها كانت تُحكِم إغلاقها كأن تضع مثلا عشرة أقفال، لماذا؟ ليستحيل خروجه، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ إذًا هذه التهيئة.

ثم بعد ذلك انتقلت إلى التصريح، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾. قبل أن نصل لـ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾[يوسف 23] عن ماذا؟ ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

(عن) يُسمى أحيانًا حرف تجاوز، أي: أرادت أن يترك نفسه بدون أمر أو نهي، أرادت بتعبير ابن عاشور: تطلب منه أن يسلم لها إرادته وحكمه في نفسه، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾[يوسف ٢٢] أرادت ألا يتحكم بنفسه ولا يديرها، أنت من المفترض أن تعطي لنفسك الأوامر ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ﴾[النازعات ٤٠]، عندما تريد شيئًا من المفترض أن تتحكم في نفسك؛ لأنك حينما تترك نفسك يقودها الشيطان، تقودك امرأة، يقودك المال.. أيًّا كان فمن الممكن أن تنحرف عن مراد الله، فلا بد لك أن تتحكم في نفسك.

فكلمة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: أرادت أن يترك أخلاقه جانبًا، دعك من هذا التحكم وهذا التسلط وهذه العفة، دعك من هذا. إذًا المراودة فيها منازعة في الإرادة وفيها تلطف، لذلك يُقال: افعل هذا الأمر رويدًا، جاءت من راوده رويدًا أي: بلطف وتدرج.

﴿عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ بدأت بالتعريض ثم التهيئة ثم التصريح، حتى وصلت لمعنى ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، معنى وصولها لذلك أنه كان قبل ذلك مُعرِضًا عنها ولم تأتِ أفعالها بنتيجة معه.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: بدأت التصريح، وكلمة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ من الكلمات التي فيها قراءات كثيرة، ما يقرب من تسع قراءات، أربعة متواترة وخمسة شاذة؛ الأربعة المتواترة: كما نقرأ بحفص ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وكثير من القراء الآخرين يقرأون ﴿هِيْتَ لَكَ﴾كقراءة نافع المدني.

القراء السبعة الأساسيين هم:

ثلاثة كوفيون، وواحد مكي، وواحد مدني، واثنان أحدهما بصري والآخر شامي.. اثنان واثنان وثلاثة، ابن كثير المكي، ونافع المدني، أبو عمرو البصري، ابن عامر الشامي، ثم عاصم وحمزة والكسائي كوفيون، ونحن نقرأ بقراءة عاصم الكوفي، وكل واحد منهم أخذ عنه اثنين أساسيين، نحن نقرأ حفص عن عاصم، والآخر شعبة عن عاصم.. ونافع قراءة أهل المدينة.

لماذا نقول هذا؟ حتى لا تستغرب القراءة عندما أقولها، فـ﴿هِيْتَ لَكَ﴾ قراءة نافع، وهناك ﴿هَيْتُ لَكَ﴾ قراءة ابن كثير المكي، وهناك ﴿هِئْتُ لَكَ﴾ أو ﴿هِئْتَ لَكَ﴾-على خلاف- عن ابن عامر المدني، وابن عامر أخذ منه اثنان: هشام، وابن زكوان.. ما مفاد كل ذلك؟

* أنهم قالوا: إن مجموع هذه القراءات كلها تفيد شيئين:

- إما أن أناديك وأطلب منك أن تأتي صراحةً ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: تعال إليَّ وهَلُمَّ إليَ، ولك: أي أطلب منك طلبًا مخصوصًا خاصًا لك وكأني لم أطلبه من أحد، فهذا طلب مخصوص أطلبه منك بقمة الصراحة والوضوح.
- أو ﴿هِئْتُ لَكَ﴾ أي: تهيأت لك.

نُنزّل اختلاف القراءات منزلة اختلاف الآيات، فكأنهم آيتين، أي كأنها فعلت الشيئين: تهيأت ثم طلبت منه، وهذا إعجاز أن يأتي هذا في كلمة واحدة، فنزل القرآن على سبعة أحرف -الأحرف غير القراءات- لكن تفيد أحيانًا تنوع المعاني -وهذا مبحث طويل- وهذا أيضًا من إعجاز القرآن.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾: رد عليها مباشرة: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

ثلاث جمل لا يوجد بها هجوم مباشر عليها؛

- أول كلمة منها: أستعيذ بالله، ذكَّرها بالله وذكَّر نفسه بالله وطلب الاستعاذة من الله، لم يثق في نفسه فلم يقل: أنا لا يمكن أن أفعل ذلك أبدًا، بل قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أطلب العوذ منه، والعوذ: كمال الالتجاء إلى درجة الالتصاق، العائذ أحيانًا كانت تقال للأم الملتصقة بطفلها أو الطفل الملتصق بأمه (عائذ)، وأطيب اللحم أعوذه أي: اللحم الملتصق في العظام، فالعوذ: هو الشيء الملتصق، فـ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ كأنه يقول: يا رب لا تتركني لحظة ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾[يوسف ٣٣] أن تعترف بضعفك لله –سبحانه وتعالى–، وأن تفتقر إليه.

أول شيء تفعله لمقاومة أي شهوة وأي إشكال **أن تستعيذ بالله**، وأن تلجأ إليه التجاء المضطر قبل أي شيء، قبل استحضار أي معنى. قل: لا تتركني يا رب، لو تركتني سأضيع (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[7] معاذ الله هي التذكرة الأولى.

- التذكرة الثانية: لما لم ينفع معها التذكرة بالله ذكَّرها بزوجها ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، أي الذي تخونينه، وهذا يسمونه ضمير الشأن، أي: إن الشأن الذي تفعلينه عظيم.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾: ﴿رَبِّيٓ﴾ هنا بمعنى سيدي،رجل أنفق عليَّ وقال لكِ ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾[يوسف ٢١] وأنا أذكر هذه الكلمة فلا أخونه أبدًا، وأنا أرد له الجميل.

- التذكرة الثالثة: عند الله –سبحانه وتعالى– في الآخرة وفي الدنيا هذا ظلم لنفسي وظلم له، وأنتِ تظلمين نفسكِ وتظلمينه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ثلاث جمل كل جملة بدرس، لكن لم يؤثر فيها ذلك!

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف ٢٤] همَّت به أي: لم يؤثر فيها الكلام وظلت واستمرت، ليس فقط في المراودة بل همت به وأقبلت عليه، ماذا فعل سيدنا يوسف حينئذ؟

[7] أن تقولَ إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتِك أستغيثُ وأصلحْ لي شأني كلَّهُ ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ أبدًا الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٥٥٧/٧ • إسناده حسن

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، ماذا تعني تلك الجملة؟

* اختلف العلماء هنا.. هناك اتفاق على المرأة، لكن هناك ثلاثة أقوال في يوسف:

- القول الأول: إنه جاءته هذه الخواطر التي تأتي لأي إنسان ثم صرفها عنه سريعًا لما رأى برهان ربه -وسنذكر معنى رأى برهان ربه-، هذه الخواطر التي لا يستطيع أن يدفعها أي إنسان عن نفسه في مثل هذا الموقف؛ رجل، شاب، عبد، أعزب، في مكان غريب، لا يراه أحد، امرأة جميلة وغنية، في منصب، هي التي تطلب منه، وتهدده. كل العوامل ضده وهي التي إذا توفر عامل واحد منها تجعل الإنسان يضعف، لكن تخيل بالرغم من كل هذه العوامل جاءه الخاطر فصرفه.
- أو ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: كان همها إقبالًا وكان همه مجرد خاطر، فالهموم تختلف، لذلك هناك همٌّ بمعصية تأخذ عليه ذنبًا، وهمٌّ بمعصية تأخذ عليه حسنة، كيف يكون هذا؟ -هذا مبحث طويل- لكن أن تهم بمعصية وتعزم عزمًا أكيدًا ثم لا يصرفك عنها إلا نظر الناس مثلًا أو أنها ذهبت فلم تقدر على فعلها، كالسرقة مثلاً: أقبلتَ على المال لتسرقه ومددت يدك فجاء صاحب المال وأخذه، فتأخذ هنا ذنبًا، وإذا جاءك خاطر سوء فدافعته وجاهدت نفسك ولم تفعله تأخذ عليه حسنات. فقالوا إن هم يوسف كان غير الهم الأول.
- وهناك قول آخر: إنه لم يهم بها لأنه رأى برهان ربه، فلولاه لهمَّ بها، وهذا القول الثاني أو الثالث وهذا ما نصره بقوة الإمام أبو حيان في البحر المحيط، والشيخ الشنقيطي من المعاصرين في ضوء البيان. ودافع بعضهم باستماتة عن قول الشيخ الزمخشري بهجومه على من يقول أنّه همَّ بها همًا حقيقيًا ثم انصرف؛ لأنه هم خاطر لا يستطيع بشر أصلًا أن يدفعه ولكن لم يجعله يستقر، كخواطر السوء التي تأتيك، أو أحلام اليقظة التي تأتيك، تلك لا تأخذ عليها ذنبًا، متى تأخذ عليها ذنبًا؟ عندما تستدعيها وتجعلها تستقر وتفكر فيها وتستمر عليها، هنا يكتب ذنبًا. فخواطر السوء أنت لا تستطيع دفعها عن نفسك، أشبه بالسؤال المشهور: من خلق الله؟ هذه الوسواس ليس عليها ذنب، لكن متى تحاسب عليه؟ بالاستمرار فيه فتصل إلى مرحلة الشبهات والشكوك وتصدقها.

فإذا آتاك خاطر من الشيطان كأن تأتيك صورة امرأة رأيتها بالنهار ماذا تفعل؟ ادفع عن نفسك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ﴾[الأعراف ٢٠١] هذا المس لا تستطيع أن تفر منه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾جاءت صيغة ﴿إِذَا﴾ متحققة الوقوع. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ -تم شرح الآية بالتفصيل في آخر

الأعراف- ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ هنا لا يأخذ ذنبًا. حسنًا، من يأخذ الذنب؟ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠٢]: إخوانهم أي: إخوان الشياطين، يستفيضون فيها فينقلب الأمر لمعصية.

❖ أدلة براءة يوسف:

فقالوا: إن هم المرأة كان غير هم يوسف بدليل أن الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾[يوسف 24]، والمرأة شهدت له أنه استعصم ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف ٣٢]، لذلك الرازي شنّع جدًا على من قالوا بأن يوسف هم، قال: إن الله شهد له، والمرأة شهدت له، والشيطان شهد له، كيف هذا؟

الله شهد له فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾[يوسف 24]، المرأة شهدت له فقالت: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف ٣٢]، الشيطان قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[8]، وقال الله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فشهد الشيطان أن يوسف منه براء فكيف تتهمونه؟!

والطبري بالرغم من أنه اختار أن يوسف هم بالفعل، لكنه ابتعد وقاوم وانصرف، قال نقلًا عن بعض أهل العلم: وتذكر لنا هذه القصة سلوى وبلاء لمن وقع أو هم أن يقع بمعصية أن له أسوة فلا بد أن يتوب وأن يكون أفضل مما كان وأن هذا الفعل لا يشينه أبدًا، وأن العبرة كما يقول الإمام الشيخ ابن تيمية دائمًا: **أن العبرة ليست بنقص البدايات لكن بكمال النهايات**. فمن الممكن أن تسقط كثيرًا لكن العبرة بكمال النهايات. فسواء أخذنا بهذا القول أم لم نأخذ به فهذه القاعدة صحيحة، فلا تقل: لا يوجد أمل، لقد قمت بمعصية شنيعة، لقد وقعتُ... إياك أن تقول ذلك، (ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه)، وهذا تأويل البراء بن عازب وأبو عايدة السلماني في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة ١٩٥]، فإياك أن تستسلم.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف ٢٤]: قال أبو حيان والشيخ الشنقيطي: لولا أن رأى البرهان لكان هم بها. بالطبع هنالك تفاصيل لغوية كثيرة.. فهل يجوز تقديم لولا أم لا؟ الشاهد أن ما نميل إليه القول الوسط أنه خاطر لا يستطيع أن يدفعه الإنسان عنه، فلما رأى البرهان دفعه عنه ولم يستمر

[8] ذكرت هذه الآية في [الحجر ٤٠] و[ص 83].

عليه، وإن كان القول الثالث قويًا كما قال أبو حيان والشنقيطي والرازي ودافعوا عن سيدنا يوسف، وأنا أرى أن مآل القولين واحد.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف ٢٤]: أيضًا لم يبين البرهان، هل رأى شيئًا أمامه؟ هل أنزل الله له ملكًا؟ هل شعر بقلبه؟ هل ذكَّره الله بشيء؟ كأن تهم أحيانًا بعمل معصية فتشعر بداخلك أن هناك من يقول لك: "اتقِ الله"، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (واعظ الله في قلب كل مسلم)[9]، أنت بداخلك واعظ إياك أن تقتله، بداخلك ضمير، بداخلك ما يسمونه بـ"لمة الملك" و"لمة الشيطان" قد يكون هذا هو البرهان، فانتفض وقم. لذلك جاءت الجملة الاعتراضية ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾- بعد ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، يقول ربنا لنا ماذا فعل مع يوسف، لكن إن حذفنا الجملة الاعتراضية تصبح: وهم بها لولا أن رأى برهان ربه.

❖ اترك مكان المعصية فورًا:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾[يوسف ٢٥]! فإذًا لم ينتظر ولم يقل لها أريد أن أقنعك، أريد أن أشرح الموضوع بالتفصيل، كلا اترك مكان المعصية فورًا ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ فالمسألة تحولت إلى سباق، فإما أن ينجو وإما أن يسقط. إذًا يجب أن تفر من أرض المعصية، اترك أرضك.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كان مع الجيش وساروا طويلًا ثم قال لبلال: احفظ علينا صلاتنا أو احفظ علينا الليل، ونام سيدنا بلال، فلما استيقظوا على حر الشمس نظر إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: يا بلال! قال: يا رسول الله أخذ بعيني الذي أخذ بعينك. فأول شيء قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تحولوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة)[10] أو تحولوا عن مكان الشيطان، حتى إن أحد أهل العلم المعاصرين وهو يشرح الحديث يقول: عندما تغفو قم وانتقل من المكان وغيّره، قم فقط وانتقل

---

[9] [عن النواس بن سمعان الأنصاري]: ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مُرْخاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ ! ادخلوا الصراطَ جميعًا ولا تَتَعَوَّجوا، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ محارمُ اللهِ تعالى، وذلِكَ الدّاعِي على رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلمٍ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٨٨٧ • صحيح • أخرجه الترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٣٣)، وأحمد (١٧٦٣٤)

[10] [عن أبي هريرة]: تَحَوَّلوا عن مكانِكم الذي أصابَتْكم فيه الغفلةُ. قال: فأمرَ بلالًا فأذَّنَ، وأقامَ وصلّى.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٤٣٦ • صحيح • أخرجه أبو داود (٤٣٦)، والبيهقي (٣٣٠٢) واللفظ لها، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٩٨٨)

لمكان آخر وقل الأذكار ثم صلِ، فمثلا إن فاتتك صلاة الفجر صلها ولا تقل نجمع الفجر مع الظهر! انصرف فورًا عن ذلك.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾: اشترك الاثنان في الفعل، فهو يريد أن يفر ليفتح الباب وهي أرادت أن تغلق الباب، كذلك كما أنجيناه من الهلاك أنجيناه أيضًا من هذا الهلاك المعنوي لنصرف عنه السوء والفحشاء، قال أهل العلم: الفحشاء أي: الزنا، والسوء: مقدمات الزنا، فلم يفعل يوسف الزنا ولا مقدماتها، والسوء: العطف وهو يقتضي المغايرة، والفحشاء تأتي في الأغلب بمعنى الزنا، فقالوا: السوء مقدمات الزنا فلم يفعل هذا ولا ذاك.

برأه الله –سبحانه وتعالى– لماذا؟ إنه من عبادنا في قراءة ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾و﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف ٢٤]، كان مخلصًا حتى استخلصه الله لنفسه، إذًا فلتدعو كثيرًا وتقول: "اللهم اصرف عني السوء والفحشاء، واجعلني من عبادك المخلصين" وتستعيذ بالله.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾: اجرِ.. اهرب من مكان المعصية، لا تجلس وتناقش وتُبيّن وتشرح، فالأمر هنا يفوق العقل، هو شرح لها وبيَّن وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، و ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف ٢٣] فحسب. أحيانًا حينما تشتعل وتستعر الشهوة فليس المكان للنقاش، فِرَّ من المكان، فأحيانًا مثلاً يريد أصحابك فعل معصية ما ولو ظللت معهم ستضعف، انصرف مباشرة ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾[القلم ٢٨]، هو كان رافضًا لكنه لم يتركهم ففعل هذه الفعلة الشنيعة التي شنع الله عليها في سورة القلم. فأيًّا كانت الشهوة انصرف فورًا! احترم ضعفك، وانصرف عن مكان المعصية لأن الإنسان تأتيه فترات قوة فيقول : كلا، لا يمكن أن أفعل هذا، ثم يمر بفترات ضعف. احترم لحظات ضعفك واستغل فترات قوتك.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾[يوسف ٢٥] كلمة ﴿قَدَّتۡ﴾ تعني أنه اتخذ قرارًا سريعًا، فهذه الجذبة قطعت القميص ولم يتوقف.. مهما فقدت أثناء الجري فإياك أن تتوقف، إياك، بالفعل في لحظات الهروب من الشهوة لا بد أن تفر أحيانًا كأن تكون جالسًا بمفردك فانزل واجلس مع أحد أصدقائك، لا تجلس بمفردك كثيرًا،استغل أوقات الفراغ لأنها التي تصنع استعار الشهوة، لأن إيمانك ضعيف، وذهنك غير مشغول، ولا تحمل همومًا عالية.

تجلس في البيت وبدأت خواطر السوء، والشيطان أراد أن يطوف بك ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾[الأعراف ٢٠١]: الشيطان يريد أن يحوطك، فالطواف من الإحاطة، قبل أن يحيطك الشيطان ويغزل أنسجة خيوط العنكبوت اقطع هذه الخيوط وانزل. أين أنزل؟! اذهب لأي مكان، افتح المصحف... افعل أي شيء، ومباشرةً خذ القرار.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾[يوسف ٢٥] ، ثم ماذا؟ تفتح الباب: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ماذا قالت له؟ هذا ما سنعرفه بإذن الله –عز وجل– في المرة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.